ياسر عرفة توفيق
كاتب وقاص

البخل.. أسباب ودوافع

البخل آفة اجتماعية تكمن خطورتها في أنها تكون سببا وطريقا لآفات عدة تصيب صاحبها ليس ذلك فحسب بل إن تأثيرها الضار يتعدى الفرد ليطول المجتمع فلن يقتصر الأمر على مجرد الضن بالمال بل يأخذ الأمر أشكالا عدة وصورا شتى حتى يضن بوقته وجهده وعرقه على مجتمعه ويبلغ الأمر منتهاه حين يضن بنفسه متى دعت الحاجة أن يجود بها في سبيل بقاء مجتمعه.

هذا بدوره يدفعنا إلى أن نبحث عن الأسباب التي مكنت هذه الآفة الخطيرة من أن تجد لها مكانا في نفس صاحبها حتى صارت خلقا متأصلا وطبعا ملازما وديدنا دائما لصاحبه

المنفلوطي واحد من هؤلاء الذين بحثوا في الأسباب الباعثة على ظهور هذه الآفة الاجتماعية[1].

وإن كان المنفلوطي راح يبحث في الأسباب وراء ظهور البخل فقد راح ابن الجوزي يسرد لنا طرفا من قصص هؤلاء البخلاء[2]، يذهب في كثير من الأحيان بما يوافق أسباب المنفلوطي فهو يرى أن هذه الأسباب تختلف باختلاف الأشخاص البخلاء وأطوارهم وأخلاقهم وتربيتهم ليبدأ في سرد أهم هذه الأسباب والتي

يضع أولها الوراثة وإن كان يراه ضعيفا لما يعرض للأخلاق الموروثة أحيانا من التغير والانقلاب إذ إن المعاشرة لمتصفين بأضدادها كثيرا ما تترك أثرها المغير ويسرد لنا ابن الجوزي هذه القصة التي تدلل على دور التربية في نشوء هذه الصفة الذميمة:

«حدثني بعض أصحابنا عن حالة

شاهدها في هذا الفن، قال إن فلانا له ولدان ذكران وبنت وله ألف دينار مدفونة فمرض مرضا شديدا فاحتوشته أهله فقال لأحد بنيه لا تبرح من عندي فلما خلا به قال له: إن أخاك مشغول باللعب بالطيور، وان أختك لها زوج تركي ومتى وصل من مالي إليها شيء أنفقوه في اللعب وأنت على سيرتي وأخلاقي ولي في الموضع الفلاني ألف دينار فإذا أنا مت فخذها وحدك فاشتد بالرجل المرض فمضى الابن فأخذ المال فعوفي الأب فجعل يسأل الولد أن يرد المال إليه فلا يفعل فمرض الولد فجعل الأب يتضرع إليه ويقول: ويحك خصصتك بالمال دونهم فتموت فيذهب المال ويحك لا تفعل فما زال به حتى أخبره بمكانه فأخذه ثم عوفي الولد ومضت مدة فمرض الأب فاجتهد الولد أن يخبره بمكان المال وبالغ فلم يخبره ومات وضاع المال[3].

ويرى المنفلوطي أن التربية شأنها شأن الأمراض التي تسري إلى الإنسان فإذا نشأ الطفل وسط أشحاء تخلق بأخلاقهم بل ربما فاقهم في ذلك وفي ذلك يحكي المنفلوطي بعد أن يسرد هذا السبب أن رجلا دخل منزلا يعرف أهله بالشح والحرص فرأى طفلا صغيرا في يده ليمونة صغيرة فساله إياها فأجابه الطفل «إن يدك لا تسعها»[4]. سبب آخر يردفه المنفلوطي ويجعله من أبرز الأسباب الباعثة على ظهور الشح وهو سوء الظن بالله ذلك كما يقول إنه متى أخذت عقيدة القضاء والقدر من نفس صاحبها وحسن ظنه بالله وأنه أرحم بعباده من أن يكلهم إلى أنفسهم ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الأيام فلا يلج به الحرص على الجمع ولا يزعجه الخوف من البذل عكس ضعيف الإيمان ضعيف الثقة بالله[5]

وفي هذا السياق يحكي ابن الجوزي «ولقد مات بعض أصحابنا وكنت أعلم له مالا كثيرا وطال مرضه فما اطلع أهله على شيء ولا أكاد أشك أنه من شحه وبخله وحرصه على الحياة ورجائه أن يبقى لهم شيء يعلمهم بمدفونه خوفا أن يؤخذ فيحيا هو وقد أخذ المال وما يكون بعد الخزي شيء»[6].

ولكن أتكون النكبات والمصائب سببا في نشوء هذا الخلق الذميم هذا ما يراه المنفلوطي ويعلل ذلك بأن وقوع الإنسان تحت نكبات تصهر قلبه وتزعج غريزته عن مستقرها خاصة تلك التي تسببها قلة المال حيث يرى أنه لولا ضيق ذات يده لما اكتوى بنيران النكبات ولما لحقته الآمها فيدفعه ذلك إلى الحرص حتى وإن فاضت عليه الدنيا لم تزل مرارة النكبات في فمه حتى يصير ذلك طبعا لازما له[7].

من القياس الفاسد أن ذري المال أحق بالمحبة

ولؤم النفس يراه المفلوطي طريقا لبروز هذه الصفة ذلك أن النفس اللئيمة تنطوي على صفة هي من أخس صفاتها وهي الحقد على الوجود بأجمعه وبغض الخير للناس قاطبة وكما يقول المنفلوطي «وهو لو استطاع أن يكف عنهم سارية السماء، ويعترض دونهم نابتة الأرض لفعل!»[8].

وفي هذا يروى ابن الجوزي: «وحدثني أبو الحسن الراندسي قال: مرض رجل عندنا فبعث إلي فحضرت فقال قد ختم القاضي على مالي فقلت: إن شئت قمت وفتحت الختم وأعطيتك الثلث تفرقه وتعمل به ما تشاء فقال: لا والله ما أريد أن أفرقه بل أريد مالي يكون عندي فقلت: ما يعطونك بلى أن آخذ لك الثلث فقال لا أريد، فمات وأخذ ماله»[9].

ويسبر المنفلوطي أغوار النفس البشرية بحثا عن الأسباب الباعثة لنشوء الشح ليصل إلى أن سقوط الهمة سببا في ذلك ويربط بين طموح الإنسان وحبه للذكر الحسن والثناء الجميل ليسهل عليه أن يبذل في

سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده بل من ذات نفسه ويصف المنفلوطي ذلك ببيان رائع «وحب المجد أسال الذهب من خزائن الأغنياء وصير نفوس الشجعان نهبا مقسما بين شفرات السيوف وأسنة الرماح طلبا لسعادة الحياة بالذكر وسعادة الممات بالخلود»[١٠].

وعلى نقيض ذلك يرسم صورة ساقط الهمة «فمن لساقط الهمة ضعيف النفس بدافع يدفعه إلى بذل المال على مكانته من قلبه وامتزاج حبه له! أيدفعه حب الثناء وهو لا يشعر بلذته، أم خوف المذمة وهو لا يتألم منها ولا يتذوق مرارتها أم سعادة الحياة وسعادة الممات» ويأخذ المنفلوطي مثالا أبقاه الشعر العربي في هذا المضمار حين يشير إلى ذلك بقوله «هو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على لسان الحطيئة من المكارم بلقمة يمضغها وحلة يلبسها «يشير إلى قول الحطيئة له

دع المكارم لا ترحل لبغيتها

واقعد فإنك الطاعم الكاسي

ويختم المنفلوطي جملة أهم الأسباب بسبب يراه داعيا لذلك وهو فساد المجتمع الإنساني حيث يتحدث عن صنف من الناس ذهب بهم قياسهم الفاسد أن ذوي المال في نظرهم أحق الناس بالمحبة والإخلاص وإن لم يحصلوا منه على طائل حتى إن البخلاء صاروا يطلبون هذا الفهم لهم في قلوب الناس بجنوحهم إلى تلك الصفة المذمومة حتى إن أحد البخلاء حين قال له رجل: يا بخيل! فقال له «لا حرمني الله بركة هذا الاسم، فإني لا أكون بخيلا إلا إذا

السعادة في العطاء والراحة في إسعاد الآخرين

كنت غنيا فسم لي المال ولقبني بما تشاء»[١١].

وفي كلام آخر للمنفلوطي في موضع آخر من كتابه النظرات[١٢]، يتحدث المنفلوطي عن البخيل يجمل معظم هذه الأسباب في بيان رائع فيقول: «وإما شحيح يأبى له لؤم نفسه وخبث فطرته أن يمنح الناس منحته سائغة هنيئة دون أن يكدرها عليهم بالمطل والتسويف والممانعة والمحاولة، والشح خلق متى نزل منزلة من نفس صاحبه أقام من نفسه حارسا يقظا على كل حاسة من حواسه الباطنة والظاهرة حتى لا يجد فيه واجد مصطنعا ولا يظفر منه معتصر ببلة فيضن بعلمه كما يضن بماله ويقبض لسانه على النطق كما يقبض يداه على الإنفاق ويصرد عطاؤه تصريدا ليستديم به حاجة الناس كما يجيع كلبه ليتبعه».

ذلك هو البخيل الذي يطلب له المنفلوطي الرحمة[١٣]، فيقول على لسان فيكتور هوجو وهو يخاطب ابنته «اطلبي الرحمة للبخيل الذي يجيع بطنه ويشبع صندوقه».

ولا تزال عالقة في ذهني تلك القصيدة التي كانت مقررة علينا دراسيا في المرحلة الإعدادية (المتوسطة) وهي قصيدة للشاعر إيليا أبو ماضي وكانت تحت عنوان «التينة الحمقاء» يحكي فيها عن تينة رأت أثمارها وكثرة خيرها فأرادت أن تضن به على الناس، يقول إيليا في أول القصيدة:

وتينة غضة الأفنان باسقة

قالت لأترابها والصيف يحتضر

لأحبسن على نفسي عوارفها

فلا يبين لها في غيرها أثر

ويسرد إيليا على لسانها دوافعها لذلك والأسباب الواهية التي ساقتها حتى كان منها الفعل وهنا ماذا كانت النتيجة كما يسطرها إيليا:

فلم يطق صاحب البستان منظرها

فاجتثها فهوت في النار تستعر

وتأتي الحكمة البليغة التي أبدع إيليا أبو ماضي في صياغتها لتكون خاتمة بليغة لقصيدة رائعة حيث ختمها بتلك الحكمة:

من ليس يسخو بما تسخو الحياة به

فإنه أحمق بالحرص ينتحر

الهوامش

١- في كتابه النظرات - الجزء الأول - الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان - ص١٢٠ في مقال له بعنوان البخيل.
٢- البخل واختلاف أحوال الناس في الدنيا - صيد الخاطر ص٣٣٦ - المكتبة التوفيقية - تحقيق عماد زكي البارودي - مدح التوسط وصور من البخلاء.
٣- ص٣٢٨ من كتاب ابن الجوزي.
٤- ص١٢١ من كتاب المنفلوطي.
٥- ص١٢١.
٦- ص٣٢٨ صيد الخاطر.
٧- ص١٢١ من النظرات.
٨- ص١٢١ من النظرات.
٩- ص٣٢٦-٣٢٧ صيد الخاطر.
١٠- ص١٢١.
١١- ص١٢٢ النظرات.
١٢- في مقدمة كتابه النظرات ص٣٩.
١٣- ص٢١٦ من قصيدة مترجمة لفيكتور هوجو بعنوان الدعاء يخاطب فيه ابنته.